

وعلى العكس من ذلك ، فيظهر أن اللهجات القديمة ، تخالفت تخالفا واسعا شديدا ، في بعض الكلمات والعبارات ، وبقي أكثر ذلك مستعملا عند كثير من أصحاب الشعر والنثر المتأخرين .

ومع ذلك اضطروا إلى اختراع كلمات جديدة لاتحصى ، لتسمية الأشياء والمعاني الجديدة ، التي لم ترها العرب ، قبل فتوحات الإسلام ، ولم تفهمها . وهذا التطور لم يزل إلى أيامنا ، فإننا إذا نظرنا إلى جريدة ، عثرنا في كل سطر على الكلمات الجديدة ، أو الكلمات القديمة ولها معنى جديد ، وإن كانت أبنيتها وتركيباتها لا تختلف عما كان مألوفا في الزمان السابق إلا قليلا .

فإذا تخيلنا ديوانا للغة العربية ، بالغا أقصى غاية في الكمال ، وقد ترتبه الحقيقة كانت النتيجة ما سيأتي : إن ذلك الديوان الكامل ، كان يذكر فيه كل عناصر اللغة ، من كل أبوابها ، وكل عصور تطورها ، وكل أنواع أساليبها ، وكان يؤتى لكل واحد منها بشواهد ، يظهر منها أكان نادرا أم كثيرا ، وعاما أم خاصا بالنثر أو بالشعر أو بفرع من فروعها ، أم كان خاصا بعصر من عصور تاريخ اللغة إلى غير ذلك .

والحقيقة أن الصرف والنحو ، وخصوصا أحوال الجملة ، قد دون على هذا النمط ، مع بقاء الخلال العريضة العميقة . وأما المفردات ، فليس لنا قاموس عربي يقضى حاجتنا ، بل يقرب من أن يقضيها ؛ فإن الكتب القديمة من (اللسان) وغيره ، وإن دهشنا منها ، وشكرنا مؤلفيها صميم الشكر ، فلا تأتي بالشواهد إلا للنادر الغريب ، وتهمل الآثار المنثورة وكلام المتأخرين . وما جمعه المستشرقون في هذا الباب ، فهو مع كثرتة ، بعيدا جدا عن الغاية .

والذى منع علماء الشرق ، مع بذل الجهد العجيب في درس اللغة العربية ، من جهة الصرف والنحو ، ومن جهة المفردات ، عن الاعتناء الكافي بالكشف عن تطور اللغة بعد الإسلام ، سببان مرتبطان أحدهما بالآخر ؛ أولهما : مداومتهم على السؤال عن الجائز في اللغة وضده ، وعلى المنع عن كثير من العبارات . وهذا وإن كان واجبا